

تَضَارَبَتِ الآرَاءُ حِينَ أُعْلِنَ خَادِمُ بْنُ زَاهِرٍ اسْتِیَاءَهُ مِنْ حُسَيْنِ صَاحِبِ (البومِ) قَائِلًا: «إِذَا أَنْ تُعْطِينَا لِأَنَّهُ قَطَعَ رِزْقَهُ وَرَزَقَ عِيَالَهُ بِيَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَنَّ لَهُ حُبًّا عَظِيمًا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: «مَنْ تَدَخَلَ فِيمَا لَا يَعْينُهُ نَالَ مَا لَا يَرْضِيهِ». كَانَ يَكْظُمُ الأُمَّةَ فِي نَفْسِهِ، حِينَ يَرَى زُمَلَاءَ المَاضِي، وَهُوَ يَمُرُّ بِهِمْ، وَكَمْ مَرَّةً شَجَعَتْهُ زَوْجَتُهُ لِلهَرَبِ بَعِيدًا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَرْفُضُ الفِكْرَةَ. كَانَتْ نَيَّةً تَوَدُّ أَحْثَهَا مِيرَةَ زَوْجَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، وَتَحْرُصُ عَلَى زيارَتِهَا، فِي كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ المَعْرَبِ، وَكَانَتْ تَصْطَحِبُ مَعَهَا ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ ذَا الأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةَ لِيَلْعَبَ مَعَ وَوَلَدِي خَالَتِهِ سَلِيمَةَ الَّتِي تَكْبُرُهُ بِأَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، وَمُبَارَكُ الَّذِي يَصْغَرُهُ بَعَامِينَ، رَيْثَمَا تَذْهَبُ الأَحْتَانُ إِلَى بَيْتِ عَمَّتَيْهَا عَوْشَةَ؛ حَيْثُ يَنْسَامِرُ الثَّلَاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لِتَحْرَجِرَ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلَدُهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى النُّومِ مِنْهَا إِلَى اليَقْظَةِ.

هَكَذَا كَانَتْ تَمْضِي أُمْسِيَاتُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ، كَمَا كَانَ يُنَادِيهِ ابْنُ زَاهِرٍ، عَدَا الأُمْسِيَاتِ القَلِيلَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَالدَّهْ قَدْ عَادَ مِنْ السَّفَرِ، وَعَالِبًا مَا يَنَامُ عِنْدَهُمْ. وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى جَنْبِهَا كَانَ وَزِيرًا، وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ لِصًا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ المَلِكُ بِالمَضْرَبِ، تَدُورُ العُلْبَةُ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَيَنْتَقِلُونَ بِبَسَاطَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ مَلِكٍ إِلَى وَزِيرٍ إِلَى لِحْصِ. وَهِيَ تَحْكِي لَهُمْ حِكَايَاتِهَا المُسَلِّيَةَ الطَّوِيلَةَ، وَهِيَ تُحَدِّثُهُمْ هَلْ أُعْجِبْتُمْ (خُرُوفَةَ) اللَّيْلَةَ؟ يَا اللَّهُ يَا أَوْلَادِي. هُوَا . اقْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنَ البَحْرِ تَأْهَبَتْ مِيرَةَ لِإِنْجَازِ أَعْمَالِهَا. فِي أَيَّامِ الرَّبِيعِ، وَقَبْلَ الرَّجِيلِ إِلَى مَنَازِلِ الصَّيْفِ. تَنْتَظِرُ دُنُو الأَصِيلِ، وَتَتَرْتَّبُ عَلَى أَحَدِ أَطْرَافِهِ طَيَّاتِ فِرَاشِ النُّومِ، وَتُنْزِفُ شَيْشَةَ (الفنرِ) ، ثُمَّ تُشْعَلُ فِتِيلَتَهُ، وَتَضَعُهُ فَوْقَ الصَّنَدُوقِ الخَشَبِيِّ المُخَصَّصِ لِذَلِكَ. وَبِالقُرْبِ مِنْهُ تُعْرِزُ عُلبَةَ الصَّفِيحِ فِي الرَّمْلِ، إِلَيْهِ أَجْسَادُ الصَّبِيَةِ وَهُمْ يَتَعَارَكُونَ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِهَا. - أَحْضَرَ خَادِمٌ حَبَالًا اشْتَرَاهَا مِنْ مُرَادِ البِقَالِ. وَانْكَبَّ عَلَيْهَا يَنْفَكِّصُهَا، وَهُوَ يُهْمُهُمْ سَاصِنَعٍ وَاحِدَةً مِثْلَهَا بِهَذِهِ الحَبَالِ، رَمَقَتْهُ زَوْجَتُهُ أَنْتَ تَضِيْعُ وَقَتِكَ. سَيَكْبُرَانِ يَوْمًا مَا. نَظَرَ إِلَيْهَا شَرَرًا، وَظَلَّ يُتَابِعُ مَا بَدَأَهُ. فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَصَلَ عَبْدَ اللَّهِ مَعَ وَالدَّتِهِ مَتَآخِرًا، وَكَانَ مُبَارَكٌ قَدْ رَافَقَ أُخْتَهُ لِإِعَادَةِ صَدِيقَتَيْهَا هُدَايَةَ، غَادَرَتِ المَرَاتَانِ إِلَى عَمَّتَيْهَا، وَمَكَتَ الصَّغِيرُ مَعَ أَبِيهِ خَادِمٍ، تُطَرِّزُ نَفْسَهَا بِنُجُومِ فِضِّيَّةٍ، وَهِيَ تَلْحَفُ الأَرْضَ بِصَبْرِ جَمِيلٍ، وَالفَنَرُ عَلَى عَرَشِهِ الخَشَبِيِّ، يُجْهِدُ نَفْسَهُ لِيشَكَّلَ يَقْعَةَ صَفْرَاءَ، فِي قَلْبِ الحَوْشِ الوَاسِعِ، وَقَدْ خَضَعَ ( الفريج ) لِصِمْتِ مُتَعَبٍ، وَبَصْدُرُ مِنْ عَادَاتِ ابْنِ زَاهِرٍ عِنْدَمَا يَسْرَحُ بِفِكْرِهِ، أَنْ يَدْخُلَ عَوْدًا مِنَ الثَّقَابِ بَيْنَ أُسْنَانِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَقْزَقَةَ العَصَافِيرِ. نَظَرَ إِلَى النُجُومِ المُتَلَفِّفَةِ، تَعَلَّمَهُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي البَحْرَيْنِ: المَجْدُ لِلْفُقَرَاءِ». وَاسْتَمَرَ يُصْدِرُ زَقْزَقَةَ العَصَافِيرِ وَهُوَ يَشْفِطُ مَا تَبَقِيَ مِنَ سَمِكِ العِشَاءِ بَيْنَ أُسْنَانِهِ، ثُمَّ يَقْذِفُهَا إِلَى الأَرْضِ البِرَاحِ مَدَّ سَاقِيهِ وَأَخَذَ يَفْرَشُ مَا تَغْضَنَ مِنْ إِزَارِهِ دَاخِلَ حِضْنِهِ عَلَيْهِمَا. كَانَا كَسِيحِينَ مِنَ الحَدِيدِ يَكْسُوهُمَا شَعْرٌ مُحَمَّدٌ كَثِيفٌ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الحَرِّ الخَفِيفِ الَّذِي بَدَأَ يُعَلِّفُ الحَوَّ، وَبِقِيَّةٍ مِنْ ضَجْرِ تَلْفُهُمَا مَعًا، أَرَادَ أَنْ يَنْسَى، فَأَخْرَجَ المِذْيَاعَ مِنْ مَحْبَتِهِ وَأَدَارَهُ كَانَتْ أُمَّ كَلْثُومٍ تُغْنِي أَخَذَ يَسْئَلُ تَحْتَ الضِّيَاءِ الوَاهِنِ بَيْنَمَا ظَلَّ الصَّغِيرُ يُرَاقِبُ تَصَرُّفَاتِهِ اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ، وَتَحَشَّأَ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ، ثُمَّ قَالَ: تَأَخَّرَ الوِلْدَانُ». لَمْ يَكْتَرِتِ الصَّبِيُّ لِمَا حَدَّثَتْ، أَخَذَتْ النِّشْوَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، إِلَّا أَنَّ خَادِمًا لَمْ يَحِلْ لَهُ الوَضْعُ، فَظَلَّ يَتَلَوْنَ إِمَّا جَالِسًا، أَوْ مُسْتَلْقِيًا عَلَى ظَهْرِهِ، أَوْ نَائِمًا عَلَى جَنْبِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، وَمُسْتِنِدًا بِمِرْفَقِهِ إِلَى الأَرْضِ، وَتَذَرَعُ الصَّغِيرُ بِالصَّبْرِ، وَقَدْ اِكْتَفَى بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى النَّائِمِ، مِنَ الفِرَاقِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ، دُونَ أَنْ يَدْخُلَ عَوْدَ ثِقَابِ بَيْنَ أُسْنَانِهِ هَذِهِ المَرَّةَ، لَا تَخْلُصُ بِسُرْعَةٍ. - وَمَا عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ أَبِي يَقُولُ عَنْهَا مُمْتَازَةً». وَلكِنِّي أَفْضَلُ حَمْدَانَ الوَطْنِي. - اسْمَحْ لِي، لَا تَعْرِفُ شَيْئًا». كَانَتْ غَاطَّةً مِنَ الصَّغِيرِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ فَلَتَتْ مِنْهُ فَصَرَخَ ابْنُ زَاهِرٍ فِي وَجْهِهِ: «مَا تَقُولُ يَا جَاهِلٌ؟». لَا شَيْءَ يَا أَبِي خَادِمَ، اعْتَدَلُ الرَّجُلُ فِي جَلِيسَتِهِ، وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا إِلَى أَنْ هَدَأَتْ حَالَتَهُ وَنَسِيَ، لَمْ يَطِبْ لَهُ الحَالُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَذَاتِ اليَسَارِ، وَقَالَ: لَقَدْ تَأَخَّرَا كَثِيرًا لَمْ نَلْعَبِ اللَّيْلَةَ مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا. . مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا، قُلْ شَحَادًا أَوْ ابْنَ بَحَارٍ، هَذَا يَكْفِي، لَمْ يُحَاوِلِ الصَّغِيرُ فَهَمَّ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا قَالَهُ. سَلَّمَهُ اليَحْلَةَ وَجَلَسَ. وَعَادَ خَادِمٌ يُكْمِلُ طَرِيقَ السَّخْرِيَّةِ فِي صِمْتِ «هَهُ» مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا، - لَا شَيْءَ. لَا شَيْءَ. لَا مَجْرَدَ وَجَعٍ. - «وَجَعٌ!». لَكِنَّهُ لَيْسَ كَوَجَعِ الدَّاءِ، لَكِنَّهُ أَحْسُ بُوخَزَاتِ مِنَ الأَلَمِ وَظَلَّ الاثْنَانِ فِي صِمْتِ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَتِ اللُّغَايَةَ أُغْنِيَتْهَا !! وَقَالَ المُذْبِعُ: بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَ هَمُومَ العَالَمِ فِي آذَانِهِمَا. وَكَانَ الصَّبِيُّ يُنصِتُ فِي غَرَابَةِ، أَبِي خَادِمٍ؟ ! « خَشِخَشَ المِذْيَاعِ، وَتَضَارَبَتِ الإِذَاعَاتُ، فَصَفَنَ الوُجُودُ كُلَّهُ، أَوْ هَكَذَا تَرَءَى لِلصَّغِيرِ، ثُمَّ نَطَقَ الوُجُودُ كُلَّهُ. مَا يَدْرِي اقْتَرَبَ الطُّفْلُ. كَانَ اللَّيْلُ يَتَوَكَّلُ بِخُطُوتِهِ الصَّامِتَةِ، قَالَ ابْنُ زَاهِرٍ «أَدْنُ مِنِّي يَا صَغِيرِي». ثُمَّ قَالَ: أُنْعَرِفُ الظُّلْمَ يَا وَلَدِي؟»، مَا الظُّلْمُ يَا أَبْتِ؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظُّلْمُ هُوَ أَنْ يَوْجِدَ فِيْنَا وَاحِدًا مِثْلَ حُسَيْنٍ، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مَا نَسُدُّ بِهِ الرَّمَقَ. تَصَاعَدَ الدَّمُ فِي رَأْسِ ابْنِ زَاهِرٍ فَأَصْبَحَ كَالْمَرْجَلِ، وَأَرْدَفَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الصَّبِيِّ بِسَبَابَتِهِ : اسْمَعْ مِنِّي يَا وَلَدِي، هَا هُوَ أَبُوكَ يَدُورُ كَالثُورِ المَرْبُوطِ فِي ( المنيور ) مِنَ الهِنْدِ إِلَى إِفْرِيْقِيَا إِلَى المَمْلَكَةِ، يَصُبُّ الخَيْرَ فِي جُوعِي حُسَيْنٍ وَيَزِدَادُ أَبُوكَ فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، سَيَقْدِفُ بِهِ فِي البَحْرِ، كَمَا فَعَلَ مَعِي هَا أَنْتَ تَرَانِي كَالآلَةِ المَعْطُوبَةِ . كُنْ بَحَارًا - يَا وَلَدِي - فَنَحْنُ كَالسَّمَكِ يُمِيتُنَا البَعْدُ عَنِ البَحْرِ، وَلكِن لَا تَكُنْ ثُورًا يَدُورُ لِصَالِحِ أَحَدٍ فَالْتِيْرَانُ يَجِبُ أَنْ تَتَّحِدَ لِصَالِحِهَا المُشْتَرَكِ». فَهِيَ هِيَ الثُّورُ المَحْدُورُ يَتَفَجَّرُ كَالْحِمَمِ، عَصَرَ رَأْسَهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ. أَحْسُ بِدَوَارٍ شَدِيدٍ. مَادَتْ بِهِ الأَرْضُ.

وَاحْتَقَنَ وَجْهَهُ نَوْرَمَتِ شَفَاتِهِ، وَتَهَدَّكَ الشَّفَةُ السُّفْلَى. صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «آخِ الصِّدَاعِ.